

رقم الدرس ٨

الجمعة ١١-١-١٤٤٨هـ

شرح كتاب التوحيد

لشيخ الإسلام/ محمد بن عبد الوهاب التميمي - رحمه الله -

الملقاة بمسجد النبي - صلى الله عليه وسلم -

لفضيلة الشيخ الدكتور

محمد بن محمد المختار بن محمد بن مزيد الجكني الشنقيطي

المدرس بالحرمين الشريفين

وعضو هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية

ومفوض الإفتاء بمنطقة المدينة المنورة

حفظه الله تعالى ونفع بعلمه وغفر له ولوالديه ولجميع المسلمين

ملاحظة: هذه الدروس لم تُراجع من فضيلة الشيخ - حفظه الله -.

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

قال الإمام المجتهد -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: ولهما في حديث عِثْبَانَ -رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ-: ((فَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: "لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ" يبتغي بذلك وجهَ اللَّهِ)).

الشَّرح:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلَاةُ والسَّلَامُ الاتِّمَانُ الأكْمَلَانُ على أشرف الأنبياء والمرسلين وخيرة الله من الخلق أجمعين وعلى آله وصحبه ومن سار على سبيله ونهجه واستنَّ بسنته إلى يوم الدين، أمَّا بعدُ:

قوله -رَحِمَهُ اللَّهُ-: ((ولهما)) أي للبخاري ومسلم، وقد تقدَّم أنَّ الحديثَ حديثُ عبادة بن الصامت -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أخرجاه، وإذا اتفق الشيخان على حديثٍ فهو في أعلى درجات الصحة، ولذلك أعلى الصحيح ما اتفق عليه البخاري ومسلم، فهو في الثبوت في أعلى درجات الثبوت، ولذلك قال النَّاطِمُ:

أعلى الصحيح ما عليه اتَّفقا فما روى الجُعفي فردًا يُنتقى

وهذا الحديث والذي قبله اتفق الشيخان على إخراجهما.

هذا الحديث حديثُ عِثْبَانَ بن مالك -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-، وقد دعا النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إلى طعامٍ صنعَه في بيته، ودار الحديث وذكر رجلٌ لم يحضر تلك الدعوة، فاتهمه رجلٌ بالتَّفَاق، فبين النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أنه قال: (لا إله إلا الله)، ثم قال هذه المقالة: ((فَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: "لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ" يبتغي بذلك وجهَ اللَّهِ)).

هذا الحديث يُعتبر قيدًا للحديث المتقدم حديثُ عبادة بن الصامت -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-؛ حيث بين النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- شرطًا من شروط (لا إله إلا الله)، وهو شرطُ الإخلاص، أن يقولها العبد مخلصًا لوجه الله -عَزَّ وَجَلَّ-، يبتغي ما عند الله، فلا يقولها لأي غرضٍ آخر غير هذا المقصد العظيم، وهو ابتغاء وجه الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

و(لا إله إلا الله) لها شروط: (العلم، واليقين، والصدق، والإخلاص، والمحبة، والانقياد، والقبول لها)، سبعة شروط لا بد من توافرها.

وهذه الشروط دلت عليها: نصوص الكتاب والسنة الصحيحة عن رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -

علم يقين وإخلاص وصدقك مع محبة وانقياد والقبول لها

فهذه سبعة شروط، وأشار إليها الإمام - رَحِمَهُ اللهُ - في شرحه لكتاب التوحيد، وبين الحفيد أيضًا في شرحه - رَحِمَهُ اللهُ بِرَحْمَتِهِ الْوَاسِعَةِ - النصوص والأدلة عليها.

وهذه الشروط أجمع العلماء على اعتبارها، كما أشار إلى ذلك الإمام في شرحه، أنها مجمع عليها، فقد دلت عليها: أدلة الكتاب والسنة، والإجماع عليها.

فلا يكفي أن يقول العبد: (لا إله إلا الله)، مضيقًا لشروطها، مضيقًا لحقها وحقوقها.

فجاء حديثنا حديث عتب بن مالك - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ - يدلُّ دلالة واضحة على أنَّ القول لا يكفي ما لم يتحقق هذا الشرط العظيم، وهو شرط الإخلاص.

شروطها: (العلم)؛ لأنَّ الشَّهَادَةَ لا تكون إلا بعلم، كما قال - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -: {وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا}، وقال - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -: {إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}، فالشَّهَادَةُ قائمة على العلم، فأنت تقول: (أشهد أن لا إله إلا الله) أي (أعلم أنه لا إله إلا الله).

ثم إنَّ هذا العلم درجات، فالعلم له أربع درجات:

الدرجة الأولى: وهي أضعف العلم وأوهنه، وهي الوهم، ثم يليه الشك، ثم يليه غلبة الظن، ثم يليه القطع والجزم، فهذه أربع مراتب للعلم.

الوهم: وهو أضعفها، يقابله الظنُّ المرجوح، فأنت إذا سألك سائل: (محمد في الدار؟)، ويكون وقت عمل محمد خارج الدار، تقول: (محمد في الدار) يعني احتمال، يحتمل أنه في الدار، فعلمك أنه في الدار على سبيل الوهم، وليس أعلى من ذلك؟

ثم إذا سار الوقت يحتمل وجود محمد في الدار، وعدم وجوده، واستوى الاحتمالان، تقول: (أشك أنه في الدار).

ثم إذا قوي الظنُّ، كأن يكون وقت نومه وراحته، ولا يخرج عن البيت في مثل هذا الوقت، تقول: (محمد في الدار) أي على غلبة ظن مني أنه في الدار.

فإذا دخلت بيت محمد، وجلست مع محمد، ثم خرجت، وعند الباب سألك رجل: (محمد في الدار؟)، تقول: (محمد في الدار)، فتشهد أنه في الدار بالقطع والجزم؛ لأنك رأيته.

ولو رأيت رجلاً يضرب رجلاً، فقلت: (أشهد أن زيداً ضرب عمرًا)، فهذه الشهادة مبنية على المشاهدة، أي أنك موقن، وقد رأيت ذلك وشاهدته، فهذا علم اليقين الذي لا يدخله الشك ولا الريب. فإذا قلت: (أشهد أن لا إله إلا الله) أي أعلم علمًا يقينًا لا شك فيه ولا مريبة، فعلمنا بوحداية الله -جلّ جلاله- في أعلى درجات العلم.

ومن شهد هذه الشهادة العظيمة فعليه أن يشهد بالعلم الذي لا تحالطه الشكوك ولا الأوهام ولا الظنون، وإنما يجزم به جزمًا لا يتردد ولا يشك ولا يمتري، وحينئذ ينتقل إلى علم اليقين، يقول: علم يقين.

اليقين؛ لأن التوحيد قائم على اليقين، وليس قائمًا على الأوهام ولا على الشكوك ولا على الريب، ولذلك لما كانت رسالة التوحيد في كتاب الله -عزّ وجلّ- استفتحها الله -عزّ وجلّ- بقوله: {الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ}، التوحيد ليس فيه ريب، ليس فيه شك، وليس فيه مريبة.

ولذلك تجد الشرك على عكسه، فالمشرك متردد، وتجده يتخبط في الأوهام: {كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ}، في حيرة، مهما رأيت المشرك -وَالْعِيَادُ بِاللّهِ- يدّعي أن هذا الإله، لكنه في قرارة قلبه ليس بموقن بذلك، أمّا الموحد فإنه يوحد ربًا يقينًا وإيمانًا راسخًا أعظم من رسوخ الجبال، ولذلك تجد أهل التوحيد على الثبات؛ لأنه من الله -جلّ جلاله-.

فالتوحيد ليس فيه الشكوك، وليس فيه المريبة، وإنما هو قائم على اليقين، ولذلك بين الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- أن أهل الإيمان الذين أخلصوا ووحدوا لا ريب عندهم: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا}، {آمَنُوا}، {ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا}، فليس عندهم شكوك، وليس عندهم شك في هذه الكلمة العظيمة التي قامت عليها السماوات والأرض، والتي أنزلت من أجلها الكتب، وبعثت بها الرسل، شهادة قائمة على اليقين الذي لا يصحبه شك، ولا يداخله ظن ولا مريبة.

فليس هناك أصدق من كلمة التوحيد، ولا أعظم شهادة من شهادة التوحيد.

ويكفيك أن هذه الشهادة شرفها الله -عزّ وجلّ- وقُدّسها من دنس الشرك، ثم بين ونبه عباده على فضلها وشرفها، حتى إنه من فوق سبع سماوات شهد بها: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ}، فشهد سبحانه بهذه الشهادة له -جلّ جلاله-، وأشهد ملائكته، وأشهد العلماء وصفوته من خلقه من العلماء والأنبياء.

فهذه الشهادة شهادة عظيمة، تعرف قدر التوحيد فتتمسك به، ولا تتزعزع عنه، ولا يمكن أن يززع هذا اليقين شك أو مرية.

فأهل التوحيد ليس عندهم شك، وليس عندهم مرية، حتى إنك ترى الدجال يقتل الرجل، ثم يأذن الله للدجال أن يحيي الرجل بعد قتله؛ لأن الله يفعل ما يشاء، ويحكم ولا معقب لحكمه، فجعل فتنة الدجال فتنة عظيمة، فضرب عنق الرجل، ثم أقامه بأمر الله، فلما أقامه قال: ((أتؤمن؟ قال: ازددت أنك المسيح الدجال))، توحيد.

التوحيد إذا دخل في القلب لا يزعه شك ولا مرية، يقتله بأمر الله، ثم يحييه بأمر الله، فيزداد إيماناً و يقيناً، ولذلك لن تجد أثبت من أهل التوحيد، لا يصيهم الشك ولا المرية: {وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ}، هذا القول في يوم وصف الله فيه المؤمنين بقوله: {وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا}، شهد من فوق سبع سموات على عظمة التوحيد الذي جعل الله القلوب مساكن له، قال: {وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ}، المؤمنون الموحدون، ولذلك التوحيد يظهر في الشدائد، ويظهر في المكائد: {قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَدْرُكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ}، ما خذل الله أهل التوحيد.

فالتوحيد قائم على اليقين، لا يداخله الشك، ولا يداخله المرية ولا التردد. ثم تجد نقيضه -وهو الشرك- يقوم على الكذب، وعلى الأوهام، وعلى الريب، وعلى الظنون، فالشرك كلمة خبيثة، والتوحيد كلمة طيبة، التوحيد كلمة طيبة، {أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا}، فتجد المؤمن ينتزع من خصلة من خصال التوحيد إلى خصال، وتجد -وَالْعِيَادُ بِاللَّهِ- المشرك يتهاوى في الدركات، {كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ}، الباطل ليس له جذور.

فهذه الكلمة تقوم على العلم، تقوم على اليقين، تقوم على الإخلاص، وهنا الشاهد أو الدليل على شرط الإخلاص: ((يبتغي بها وجه الله))، ما يقوؤها يبتغي أي شيء سواه، وقد يقوؤها خوفاً من السيف، وقد يقوؤها طلباً لمطمع في الدنيا: {وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ}، ضعيف الإيمان -نسأل الله السلامة والعافية-، يقوؤها وهو مخلص لله -عز وجل-، وكان منهم من يؤمن، {فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ}، كانوا يقولون:

(نُسَلِّمُ مع هذا الرجل، فإن وجدنا عنده خيراً بقينا معه، وإن وجدنا غير ذلك انصرفنا عنه)، إن وجد الخير، هو لم يقل كلمة التوحيد، ولم يشهد شهادة التوحيد مخلصين لله يبتغون وجه الله، ويطلبون ما عند الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -، وإنما فعلوا ذلك لغرضٍ أو مَطْمَعٍ، فهذا لا ينفع صاحبه. إذا المصنِّفُ يشيرُ إلى أمرٍ مهمٍّ جدًّا، ليست العبرة أن يقول الرجل: (لا إله إلا الله)، وهو مضيعٌ لحقها وحقوقها، ولا ينفعه أن يقول: (لا إله إلا الله)، وهو مضيعٌ لشروطها، لا بد أن يعلم أن هذه الكلمة لها حقٌ وحقوقٌ، وإذا أدّيت فحينئذٍ ينتفع بها صاحبها في الدنيا والآخرة، وإذا ضيّعت هذه الحقوق فإنَّ وجودها وعدمها على حدٍّ سواء.

((يبتغي)):: يطلب، ((وجه الله)):: الإخلاص.

و(الصدق)؛ لأنه قد يقولها كذبًا: {إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ}، هم قالوا: {نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ}، لكنها شهادة الكاذبين والكذابين، يدعون أنهم من أهل الإسلام، وهم ليسوا بمسلمين، ولذلك القول موجودٌ، وهو قول: (لا إله إلا الله)، لكنَّ الاعتقاد -وَالْعِيَادُ بِاللَّهِ- غيرُ موجود، فهم أهلُ كذبٍ، القول هذا لا حقيقة له، والكذب: هو القول الذي لا يطابق الحقيقة، الموحَّد هو الذي طابق قوله عمله. فما يأتي ويقول: (لا إله إلا الله)، وهو يسأل من المقبور ما لا يُسأل إلا من الله، ويدبُّح للقبر، ويستغيثُ بصاحب القبر، ويستجيرُ، وإذا دخل على العرَّافين والكهنة وعبدة الشياطين -وَالْعِيَادُ بِاللَّهِ-، خافهم كخوفه من الله وأشدَّ خوفًا -وَالْعِيَادُ بِاللَّهِ-، هل هذا توحيد؟ هل هذا صدق في التوحيد؟ ولذلك أهلُ التوحيد يُبتلون ويُمتحنون في هذه الكلمة العظيمة: {أَحْسِبِ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ}، أبداً الأمرُ ليس كذلك.

فالتوحيد قائمٌ على العلم، وقائمٌ على اليقين، فالشُّكوكُ ليست في التوحيد، قالوا: أَيْ اللَّهِ شَكٌّ، {قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَيْيَ اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، فهذا يدلُّ هذا الاستفهام: {أَيْيَ اللَّهِ شَكٌّ} استفهام إنكاري، معناه: النَّفْيُ، أي أن الله لا شكَّ فيه.

فالمؤمن إذا آمن بالله يؤمن بدون شكٍّ، وإذا قال: (لا إله إلا الله) قالها ولا يعتريه شكٌّ ولا مريبةٌ، ويقولها صدقًا، ولا يقولها كذبًا ولا نفاقًا ولا تدليسًا، ولذلك أهلُ التوحيد أصابوا المقاماتِ العلا بالصدق مع الله -عَزَّ وَجَلَّ-.

وهذا الصدق تجده لأهل التوحيد في أبهى وأجل وأكمل ما تجده في الموحدين حينما تقرأ قصص الأنبياء، فقد وَّحدوا الله بعلم، ووَّحدوه بيقين، ووَّحدوه بإخلاص، ووَّحدوه بصدق، ووَّحدوه بمحبة، ووَّحدوه بانقياد، ووَّحدوه -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- بقبول: {إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}.

هذا الصِّدْق لهذه الكلمة والقيام بحقوقها هو الذي يجني العبد منه الثمرات، فتجده يعتقدها بجنانه، ويقولها بلسانه، ويعمل بها بجوارحه وأركانه، وعند هذا يكون موحِّدًا صادقًا في توحيده. والمصنِّف -رَحِمَهُ اللهُ- الإمام المجدِّد -رَحِمَهُ اللهُ- ذكر هذا الحديث كالقيد للحديث الذي تقدَّم، حديث عبادة بن الصَّامت -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ- قيَّده حديث عِثْبَانَ بن مالك، فكان كالقيد، والمطلق يُحمَل على المقيّد كما هو مقرَّر في الأصول.

قال -رَحِمَهُ اللهُ بِرَحْمَتِهِ الْوَاسِعَةِ-: [حديث عِثْبَانَ -رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ-: ((فَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ)) عِثْبَانُ بْنُ مَالِكٍ بن عمرو بن عوف الخزرجي، من أصحاب رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

عِثْبَانُ قِيلَ: إنه شهد بدرًا، ولم يذكره ابنُ إسحاق في البدرين، وذكره غيره من أئمة السِّير، فهو بدريٌّ على هذا القول -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-.

وقيل: ذكر ابنُ سعدٍ في (الطبقات) أن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- آخى بينه وبين عمر بن الخطاب -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الْجَمِيعَ-، تُوفي في خلافة معاوية -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الْجَمِيعَ-.

((فَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ))، ((فَإِنَّ اللَّهَ)): بصيغة التوكيد والجزم، الحرام: هو الممنوع، ((حَرَّمَ عَلَى النَّارِ)): يحكم، وإذا حكم الله لا يُعَقَّبُ حكمه، ((إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ)): وهذا يدلُّ على فضل التوحيد، وشرف التوحيد، وفضل الموحِّدين، وشرف الموحِّدين، اللهم اجعلنا منهم، واحشُرنا في زمرة. ((فَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: "لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ" يَتَغَيُّ)): فجعل رابطًا ما بين الاعتقاد وما بين القول، فهي قولٌ باللسان، واعتقادٌ بالجنان، وعملٌ بالجوارح والأركان.

فهذه الكلمة قُيِّدَتْ بابتغاء وجه الله، ((فَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ))، وإذا حَرَّمَ اللهُ على النار فلن يدخلها، لكن متى؟ إذا جاء بها على الوجه الذي يرضي الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، فحقَّقها وقام بحقوقها، وحقَّق شروطها كاملة، الموحِّدُ الكاملُ بتوحيده بإذن الله -عَزَّ وَجَلَّ- لا يدخل النَّارَ، ولذلك لا يعصي الله -عَزَّ وَجَلَّ- بكبائر الذنوب الموجبة لدخول النار؛ لأنَّه جاء ما يقيِّدُ هذا الحديث كما قُيِّدَ بالإخلاص،

قَيَّدَتْهُ أَحَادِيثُ أُخْرَى، وهذا الذي يشهد شهادة التوحيد، ((مَنْ قَالَ: "لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ" يَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ)): وعنده كبائر الذنوب، هو:

إِمَّا أَنْ يَكُونَ مُحَافِظًا عَلَى طَاعَةِ رَبِّهِ، يَأْتِمُرُ بِأَوَامِرِ اللَّهِ، وَيَنْتَهِي بِنَوَاهِي اللَّهِ، وَلَا يَصِيبُ كِبَائِرَ الذُّنُوبِ الَّتِي تَوْجِبُ دُخُولَ النَّارِ، فَإِنَّهُ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَعَ الدَّاخِلِينَ، جَعَلْنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ مِنْهُمْ. وَأَمَّا إِذَا وَقَعَ فِي كِبَائِرِ الذُّنُوبِ، فَحِينَئِذٍ هُوَ تَحْتَ مَشِيئَةِ اللَّهِ، إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ فَبَعْدَ، وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ فَبِفَضْلِهِ.

وَالَّذِينَ أَصَابُوا كِبَائِرَ الذُّنُوبِ، مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ: أَنَّهُمْ تَحْتَ الْمَشِيئَةِ إِذَا لَمْ يَتُوبُوا مِنْهَا، وَلَمْ يَرْجِعُوا إِلَى اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- فِي حَيَاتِهِمْ، وَمَاتُوا وَهُمْ مُصِيبُونَ لِهَذِهِ الْكِبَائِرِ، فَإِنَّهُمْ تَحْتَ مَشِيئَةِ اللَّهِ، وَلَا نَجِزُهُمْ بِأَنَّهُمْ يُعَذَّبُونَ، وَلَا نَجِزُهُمْ بِأَنَّهُمْ سَالِمُونَ، تَحْتَ مَشِيئَةِ اللَّهِ:

إِنْ عُذِّبُوا فَبَعْدَ، أَوْ نُعْمُوا فَبِفَضْلِهِ وَهُوَ الْكَرِيمُ الْوَاسِعُ

فَاللَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ- إِذَا شَاءَ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ عَفَا عَنْهُمْ، وَدَخَلُوا الْجَنَّةَ بِعَفْوِ اللَّهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- بَعْدَ فَضْلِهِ -جَلَّ جَلَالُهُ-.

ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْ يَطْهَرَهُمْ مِنَ الذُّنُوبِ الَّتِي أَصَابُوهَا، فَحِينَئِذٍ يَدْخُلُونَ النَّارَ تَمْحِصًا مِنْ هَذِهِ الذُّنُوبِ؛ لِأَنَّ النُّصُوصَ دَلَّتْ عَلَى أَنَّ النَّارَ لَا تَمْسُ مُوَاضِعَ السُّجُودِ مِنَ الْعَبْدِ؛ فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُمْ مُوَحِّدُونَ، وَدَلَّتِ النُّصُوصُ عَلَى أَنَّ أَهْلَ التَّوْحِيدِ يُعَذَّبُونَ بِكِبَائِرِ الذُّنُوبِ، إِذَا شَاءَ اللَّهُ عَذَابَهُمْ بَعْدَ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- فَإِذَا أَصَابُوا كِبَائِرَ الذُّنُوبِ وَعُذِّبُوا لَا يُخْلَدُونَ، هُنَا الْفَرْقُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْخَوَارِجِ.

وَأَيْضًا الْخَوَارِجُ فِي وَجُوبِ دُخُولِ النَّارِ، وَأَمَّا أَهْلُ السُّنَّةِ فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ: لَا يَدْخُلُوهَا إِلَّا إِذَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ هُمْ تَحْتَ الْمَشِيئَةِ إِذَا عَذَّبَهُمْ عَذَّبَهُمْ بَعْدَ، وَإِذَا عَفَا عَنْهُمْ عَفَا عَنْهُمْ بِفَضْلِهِ، لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

فَبَيَّنَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: "لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ" يَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ)):، لَنْ تَجِدَ عَبْدًا مُوَحِّدًا كَامِلَ التَّوْحِيدِ لِلَّهِ، وَقَامَ لِلَّهِ بِحَقِّ هَذِهِ الْكَلِمَةِ، إِلَّا وَهُوَ أَبْعَدُ مَا يَكُونُ عَنْ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ، أَبْعَدُ مَا يَكُونُ، فَكَانَ مُوَحِّدًا حَقًّا، يَخَافُ اللَّهَ حَقَّ خَوْفِهِ، وَيَخْشَى اللَّهَ حَقَّ خَشْيَتِهِ، وَيَرْجُو رَحْمَةَ اللَّهِ، وَالْجَنَّةَ وَالنَّارَ أَمَامَ عَيْنَيْهِ، تَوْحِيدًا، وَلِذَلِكَ: ((أَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ، وَأَنَّ النَّارَ حَقٌّ)):، إِيْمَانٌ بِاللَّهِ وَمِلَأُكْتَهُ وَكُتِبَ وَرُسِلَ وَالْيَوْمُ الْآخِرُ، الْيَوْمُ الْآخِرُ أَمَامَ عَيْنَيْهِ، وَلِذَلِكَ مِنْذُ أَنْ يُوَحِّدَ اللَّهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- وَيُسِيرَ عَلَى طَرِيقِ الْمُوَحِّدِينَ، لَا يَبْقَى إِلَّا أَنْ يَثْبِتَهُ اللَّهُ عَلَى هَذَا، وَلِذَلِكَ إِذَا أَصْبَحَ وَأَمْسَى وَهُوَ عَلَى

الخوف والخشية، الخوف من الله، والخشية من عذابه وسخطه وعقابه، يخاف من الكلام الذي يتكلم به والعمل الذي يعمل، بل بلغ أنه يعمل الطاعة ويخاف من ربه ألا يتقبلها، أهل التوحيد الخالص الذين أصابوا الدرجات العلى من التوحيد، جعلنا الله وإياكم، على مذهب السلامة، بتسليم الله.

التوحيد يقود إلى الصلاح إلى الفلاح: {فَسَنِّيَسِرُهُ لِلْيُسْرَى}، ومن جعل التوحيد في قلبه واستشعره، وأصبح يمسي ويصبح وليس في قلبه إلا الله، لن يجد الشيطان سبيلاً إلى قلبه بتوفيق الله، يقوم يذكر ربه، ويقعد يذكر ربه، ما إن يتعرض لحرمة من حرمت الله إلا كانت أهون هذه الحرمة من أن تحول بينه وبين الله -عز وجل-، الموحد المخلص لله -عز وجل-، ولذلك ((من قال: "لا إله إلا الله" خالصاً من قلبه دخل الجنة))، اللهم اجعلنا منهم.

الإخلاص في التوحيد، الصدق في التوحيد؛ لأنها أعظم عهد بين العبد وبين ربه، وأعظم كلمة قامت عليها السماوات والأرض، لما يستشعر من يعبد، من يوحده، ويستشعر أنه يطلب محبته ورضوانه: {وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ}، ولذلك من كمال محبة أهل التوحيد لله -عز وجل-: صاروا إلى الله حثيثاً: {وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى}، ما يفكر الموحد الخالص المخلص في توحيده إلا في مرضاة ربه، ليس عنده شيء في هذه الدنيا إلا أن يرضي ربه، يرضيه في قوله، في عمله، في ظاهره، في باطنه، في سره، في علانيته، لا يبحث إلا عنه، إذا فعل ذلك تجد هذه الكلمة تقوده إلى الجنة، وتنتهي به إلى الجنة، يعيش حياته محباً لله صدق المحبة، لن يجد حبياً يحول بينه وبين أحب محبوب، وهو الله -جل جلاله-، ولن يجد شهوة ولا فتنة، عصمه الله بعصمته، الموحد الذي يحقق شروط (لا إله إلا الله)، ويقوم بها على وجهه، لن يجد في دنياه وآخرته إلا الخير في وجهه، ولذلك جعل النبي -صلى الله عليه وسلم- العواقب الحميدة كلها في التوحيد.

وعقد الإمام المجدد -رحمه الله- هذا الباب؛ لكي يعرف الموحد ما قيمة التوحيد؟ فيه الفضل العظيم من الله، فمع ما فيه من هذه المنح التي تقود إلى الأعمال الصالحة وإلى الفلاح، فلن تجد أحداً أسعد في هذه الدنيا ممن وحد الله حق توحيده، والله لن تجد أسعد ممن أعطى هذه الكلمة حقها وحقوقها بشهادة الله -جل وعلا-.

أهل التوحيد هم أهل السعادة، هم أهل الجنة والزياة، وأهل النظر إلى وجه الله الكريم، أهل التوحيد هم أهل الخير في دينهم ودنياهم وآخرتهم.

فهذا التوحيد له شروطٌ يبحث عنها المؤمن، يحققها، ويقوم بحقوقها، ليست كلمة: (لا إله إلا الله)، ثم يذهب ويعكف على قبرٍ أو حجرٍ أو صنمٍ، ويقول: (لا إله إلا الله)، ويأتي ويسوق للناس عبادة غير الله -عز وجل-، وأعظم ما يكون من ضياع هذه الكلمة أو إضاعة هذه الكلمة: أن يشرك العبد بربه -والعياذ بالله-، ويسوغ للشرك، وبهون الشرك، ولذلك الموحّد الخالص يعظم التوحيد، ويحتقر الشرك، فليس هناك أبغض إليه من الشرك بالله -عز وجل-، الذنب الذي لا يغفره الله.

ومن هنا، هذه الشروط لابد من تحقيقها.

وهذه الشروط من الأمور التي ينبغي أن تعلم أنّ الصحابة -رضوان الله عليهم- كانوا يعلمونها؛ لأنّ النبي -صلى الله عليه وسلم- حدّثهم وبين لهم حقّ هذه الكلمة وحقوقها، فكانوا يعلمونها، والفطرة السويّة مع هذه الكلمة، فيأتي البعض ويقول: (هؤلاء جاءوا بشروط (لا إله إلا الله) من عندهم، شروط (لا إله إلا الله) هذه من عندهم)، يقوله بعضهم من الشبهة التي يطعن فيها في دعوة الإخلاص والتوحيد، يهدمون ما نصّت عليه النصوص في كتاب الله وسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، هذه الشروط كان يعلمها الصحابة.

ومن ميزة هذا السفر المبارك (كتاب التوحيد): أنه لخص ما دلّت عليه الأدلة في كتاب الله وسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، ومن نعم الله على هذه الأمة بخروج هذا الإمام الذي جمع بعد أن صارت فترة من الرسالة، والناس بعدوا عن عهد النبوة، وأصبح الواحد عنده الإسلام أن يقول: (لا إله إلا الله) فقط، إذا قال: (لا إله إلا الله) هذا أبداً مسلم حتى ولو عكف على القبور، وسألها ما لا يسأل إلا من الله، ويسمع الشرك، ويرى الشرك، كلّ يقول لك: (هذا قال: "لا إله إلا الله")، من الذي نبّه الناس؟ ولذلك هذا الكتاب نعمة عظيمة من الله على هذه الأمة، وهذا التوضيح لشهادة (لا إله إلا الله)، وبيان لحقوقها، هو فرق بين الحق والباطل، وبيان لتلبس إبليس على العامة، بل ممن يزعم من الخاصة (أنّ أمر التوحيد هذا سهل هيّن، وأنتم كيف تقولون: إنّ الناس يشركون، وهم يقولون: "لا إله إلا الله"؟).

فجاءت هذه الشروط في نصوص الكتاب والسنة، ولخصها الأئمة والعلماء وبينوها؛ حتى لا يحصل اللبس، ولا يلبس إبليس على الناس، ولذلك من أعظم ما يكون تلبس إبليس، ومن تلبس إبليس: أن تجد من ينتسب إلى العلم يهون من أمر كلمة التوحيد، ويشكك الناس في هذه الشروط، يقول: ("لا إله إلا الله" من أين جئتم بشروطها؟ من أين جئتم بها؟)، ويزعم أن (لا إله إلا الله) فقط أن يقولها

بلسانه، والله يقول: {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ}، وهو يقول: (لماذا تقولون: إنَّ النَّاسَ يشركون؟)، فالله -عزَّ وجلَّ- يقول: {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ}، معناه: أنَّ هناك أموراً ضيّعت، وأنَّ هناك حقوقاً للإيمان ضيّعت، فهذا اللبس وهذا الخلط وهذا التوهين وإدعاء أنَّ هذه الشروط لا حقيقة لها، بُحِّلَها نصوص الكتاب والسنة.

وفي (شرح التيسير) للإمام الحفيد -رحمه الله- بين أدلة هذه الشروط من الكتاب والسنة. فهذه الأمور كانت معروفة عند الصحابة -رضوان الله عليهم-، ليست ببدع ولا جديدة، ولا يقول لك أحد: (شروط "لا إله إلا الله" هذه من عندك، لا نعرف شروط "لا إله إلا الله" أبداً)، ولذلك قال: ((مَنْ قَالَ: "لا إله إلا الله") وسكت؟ لا، ((مَنْ قَالَ: "لا إله إلا الله" يبتغي)): بمعنى يطلب، معناه: أنَّ القول لا يفيد ما لم يكن هناك مقصد صحيح، وهذه فائدة (كتاب التوحيد): أنه يجمع لك النصوص ودلالة النصوص؛ حتى تكون على بينة.

وأهل التوحيد مما اصطفاهم الله واجتباهم به أتباع الرسل الذين وحدوا الله، وقاموا بحق هذه الكلمة كما ينبغي: تجدهم على وضوح، وهذا ما عناه الله بقوله: {قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي}، فأمر التوحيد واضح لا شك فيه ولا مرية، ليس فيه الخلط، يأتي ويقول: (لا إله إلا الله)، ويصرف حق الله لغير الله، أبداً، هذا ليس من التوحيد بشيء.

إذاً شروط التوحيد معتبرة؛ حتى لا يقع التلبس من إبليس على العبد، وحتى يؤدِّي حقوق هذه الكلمة ويفوز بهذا الفضل.

ذكر الإمام -رحمه الله- هذا الحديث الشريف تحت: (باب فضل التوحيد، وما يكفر من الذنوب)، وهذا المناسبة فيه: واضحة، حديث عتبان، وهو قيد للحديث المتقدم حديث عبادة بن الصامت -رضي الله عن الجميع-.

وفي هذا ما يشير إلى دقة المصنّف، دقته في أول شيء: اختياره النصوص، جاء بنص الكتاب، ثم أتبعه بنص السنة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من أعلى وفي أعلى درجات الصحة والثبوت عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ما اتفق عليه الشيخان، ثم اشتمل هذا النص الذي ذكره بعد الآية على فضل شهادة التوحيد، ثم أتبعه بالقيّد والشرط، وهو الإخلاص، فمن شروط: (لا إله إلا الله) الإخلاص، وإذا سألك السائل: ما الدليل على هذا الشرط؟

تقول: حديث عتب بن مالك -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: ((مَنْ قَالَ: "لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ" يَتَغَيَّ وَجَهَ اللهِ)) يعني يطلب وجه الله، أي مخلصاً، وهذا معنى قوله في الحديث الآخر أيضاً: ((مَنْ قَالَ: "لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ" خَالِصاً مِنْ قَلْبِهِ)) خالصاً من قلبه.

وعن أبي سعيد الخدري -رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ- عن رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: ((قَالَ مُوسَى: يَا رَبِّ، عَلَّمَنِي شَيْئاً أَذْكُرُكَ وَأَدْعُوكَ بِهِ، قَالَ: قُلْ يَا مُوسَى "لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ"، قَالَ: كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُونَ هَذَا، قَالَ: يَا مُوسَى، لَوْ أَنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَعَامَرَهُنَّ غَيْرِي، وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ فِي كَفَّةٍ، وَ"لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ" فِي كَفَّةٍ، مَالَتْ بِهِنَّ "لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ"))، رواه ابن حبان والحاكم وصححه.

الشَّرْحُ:

((قال موسى)): هذا الحديث عن رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الذي أخرجه الحاكم في مستدركه وصحَّحه، وصحَّحه غيره أيضاً من العلماء، واشتمل على فضل كلمة التوحيد، وفضل ذكر الله بها -جَلَّ جَلَالُهُ-، حتى أخذ بعض العلماء من هذا الحديث الشريف دليلاً على أَنَّ أَفْضَلَ الذِّكْرِ قَوْلُ: (لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ).

وهذا ما يدلُّ عليه أيضاً: الحديث الصحيح عن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أنه قال: ((خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: "لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ، لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"))، أَفْضَلُ مَا ذَكَرَ بِهِ الذَّاكِرُ رَبَّهُ هَذِهِ الْكَلِمَةُ الْعَظِيمَةُ، وَفَضْلُهَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ التَّوَابَ فِيهَا أَعْظَمُ مِنْ غَيْرِهَا.

وجاء هذا الحديث عن أبي سعيد الخدري -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أَخْبَرَ فِيهِ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَنْ أَمْرٍ غَيْبٍ فِيمَا وَقَعَ بَيْنَ مُوسَى -عَلَيْهِ السَّلَامُ- وَكَلِيمِ اللهِ، وَمَنْ أَلْقَى عَلَيْهِ مَحَبَّةً مِنْهُ: {وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي}، هَذَا النَّبِيُّ الْكَرِيمُ الَّذِي اصْطَفَاهُ اللهُ، وَكَلَّمَهُ تَكْلِيمًا، كَلَامًا يَسْمَعُهُ مَنْ بَعُدَ كَمَنْ قَرُبَ، بِحَرْفٍ وَصَوْتٍ، وَلَيْسَ كَلَامًا نَفْسِيًّا، شَرَفَهُ اللهُ بِهَذَا الْمَقَامِ الْكَرِيمِ: {إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي}.

هذا الصَّفِيُّ المجتبي نادى ربَّه فيما بينه وبين ربِّه، وقال: ((يا ربِّ، علِّمني دُعَاءَ أَذْكُرْكَ وأَدْعُوكَ به)) هناك ذِكْرٌ، وهناك دُعَاءٌ، فالذِّكْرُ نوعٌ من الدعاء، والدُّعَاءُ بمعنى المسألة أيضًا فيه ذِكْرٌ لله، ويتضمن الدُّعَاءُ أيضًا.

ومن هنا، سأل ربَّه وقال: ((علِّمني))؛ لأنَّ الله هو الذي يُعَلِّمُ، لذلك قال: {وَعَلَّمَنَاهُ}، وقال تعالى في آيات العلم كلّها: {أُوتُوا الْعِلْمَ}، {آتَيْنَاهُمْ}، {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ}، ولذلك قالت الملائكة: {سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا}، فهو المعلِّمُ سبحانه، وقال تعالى: {وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا}، فالله هو الذي يُؤْتِي العلمَ، وهو الذي يُعْطِيهِ، وقال لنبيّه: {وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا}، فالأنبياءُ تَأَدَّبُوا مع الله، ولذلك المؤمنُ الموحِّدُ يبرأُ إلى الله أن يكونَ عنده علمٌ إلا ما علَّمه ربُّه، {قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ}.

فقال كَلَيْمُ الله لربِّه: ((علِّمني))؛ فهذا يدلُّ على أنَّ الموقِّقَ يسألُ الله العلمَ، وكان رسولُ الأمة في أذكار الصباح يقولُ: ((اللهم إني أسألك علمًا نافعا)).

فقال: ((علِّمني شيئًا أَذْكُرْكَ، وأَدْعُوكَ به)) فيه الذِّكْرُ والدُّعَاءُ، الذِّكْرُ: هو طبعًا عبادةُ الله -عَزَّ وَجَلَّ- والدُّعَاءُ: عبادةٌ.

الذِّكْرُ عبادةٌ، فعبادةُ الذِّكْرِ شيءٌ، وعبادةُ الدُّعَاءِ نوعٌ ثانٍ من العبادة؛ لأنَّ الذي يدعو الله ويسأله هو عابِدٌ لله، عبدُ الله؛ لأنه لم يسألِ الله إلا وهو يعتقدُ أنَّ الله يجيبُ السَّائِلِينَ، ولم يسألِ الله إلا وهو يعتقدُ أنَّ الله بيده الخيرُ، فهو الذي يعطيه ويسدِّيه، ولذلك هذا النوعُ تضمَّنَ الذِّكْرَ لله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، فعبادةُ الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- تضمَّنَتِ الدُّعَاءَ من هذا الوجه، وعبادةُ الذِّكْرِ تستلزمُ المسألةَ.

فعندنا عبادةُ الذِّكْرِ، عبادةُ الذِّكْرِ: أن تسبِّحَ، أن تحمداً، أن تهلِّلَ، أن تكبِّرَ، هذه عبادةُ الذِّكْرِ. وعبادةُ المسألة: أن تقولَ: (يا ربِّ اشفني، يا ربِّ عافني، يا ربِّ اهديني، يا ربِّ وفقني)، هذه عبادةُ المسألة، والأولى: عبادةُ الذِّكْرِ.

فموسى -عليه السَّلامُ- قال: ((يا ربِّ، علِّمني شيئًا أَذْكُرْكَ وأَدْعُوكَ به))؛ معناه أنه سأل شيئًا خاصًّا به، لكنَّ هذا الشيءَ الخاصَّ يريدُ شيئًا له مزيةٌ وله فضلٌ، فكان الجوابُ من الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

((قال: قُلْ يا موسى))، ((قُلْ))؛ وهذا يدلُّ على صفة الكلام لله -عَزَّ وَجَلَّ-، (كلامٌ نفسيٌّ) بالله كيف؟ (وخلق الكلام في الشَّجرة)، كيف هذا؟ الله يقولُ: {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا}، {يُخْرِفُونَ الْكَلِمَ

عَنْ مَوَاضِعِهِ { - نَسَأَلُ اللَّهَ السَّلَامَةَ وَالْعَافِيَةَ - ، نصوص واضحة ، كلام عربي مبين ، يقول له : ((قل)) ، والله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - يتكلم متى شاء ، وكيف شاء - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - ، فهذه صفة من صفات الله - عَزَّ وَجَلَّ - ، لا تُؤَوَّل ، ولا تُعْطَل ، ولا يُقَال : (إِنَّ كَلَامَ اللَّهِ مَخْلُوقٌ) تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

كلام نسبته إلى نفسه : { إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلامِي } ، نسبته إلى ذاته ، وهذه صفة ثابتة لله - عَزَّ وَجَلَّ - ، فقال له : ((قُلْ)) ، ماذا يقول ؟ مقول القول ماذا قال ؟ ((قُلْ يَا مُوسَى : " لا إله إلا الله ")) ، فقال موسى - عَلَيْهِ السَّلَام - : ((كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُونَ هَذَا)) : هو يريد شيئاً خاصاً له مزبنة ، فإذا بالله - عَزَّ وَجَلَّ - يدلُّه على كلمة التوحيد ، وأنه ليس هناك أعظم منها ، وحينئذ تكون المناسبة : أَنَّ الْمُصَنِّفَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - ذكر هذا الحديث الشريف ؛ ليدل على فضل كلمة التوحيد ، وفضل كلمة التوحيد يدل على فضل التوحيد ، وَأَنَّ التَّوْحِيدَ له شأن عظيم ، كلمته أعظم الكلمات ، ولو وُزنت بالسموات والأرض وعامر السموات غير الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لرجحت كفة (لا إله إلا الله) ، ((ولا يثقل مع اسم الله شيء)) ، فهذا يدل على فضل التوحيد ، فإذا كان كلمته بهذه المثابة ، فمعناه : أَنَّ التَّوْحِيدَ فيه الأجور ، وفيه الثواب ، وفيه الجزاء العظيم الحسن من الله الذي لا يخطر للعبد على بال ، ولذلك أفضل ما قال العبد ، وأفضل ما قال العباد ، وأفضل ما قال النبيون : (لا إله إلا الله) ، هذه الكلمة تُكثَرُ منها ، وتُكثَرُ من ذكر الله - عَزَّ وَجَلَّ - بها قائماً وقاعداً .

((قُلْ : لا إله إلا الله)) : قُلْها في ليلك ونهارك ، وصبحك ومساءك ، حَقٌّ لنا أن نقول : (لا إله إلا الله) ، فلن تنظر أمامك إلا وجدت الدلائل والشواهد على أنه (لا إله إلا الله) ، ولو نظرت عن يمينك لوجدت الدلائل الظاهرة البينة على أنه (لا إله إلا الله) ، ولو نظرت عن شمالك ، فوقك ، تحتك ، في نفسك ، كلما نظرت في بديع صنعه وخلقه وتدبيره وتقديره وحكمته وعلمه سبحانه ، تقول بلاء قلبك ولسانك : (لا إله إلا الله) ، كلمة عظيمة تُفْتَحُ لها أبواب السماء : { إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ } . ((قُلْ : " لا إله إلا الله " ، قَالَ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَام - : كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُونَ هَذَا)) ، ((كُلُّ عِبَادِكَ)) : إذا معناه أنه يسأل شيئاً خاصاً به ، فقال الله تعالى في جوابه : ((يا موسى)) : نداء وقول من الله - عَزَّ وَجَلَّ - ، وكلمات الله ليس لها حد ، ولا تنتهي ، لو أَنَّ البحر من ورائه سبعة أبحر مداداً ، والشجر مداداً ، لكلمات الله ، لفد البحر قبل أن تنفذ كلمات الله : { وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا } ، كلام الله ليس له منتهى ، كلام أعظم ما يكون الكلام في التمام والكمال : { وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا } ، قال الله - جَلَّ

جَلَالُهُ - وقوله الحق، قال والله أصدق القائلين، لا أجمل من كلام الله، ولا أصدق من كلام الله، ولا أبين ولا أوضح: {وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ}، إذا تكلم الله فعندها ينتهي كل شيء. قال الله لموسى -عَلَيْهِ السَّلَامُ-: ((يا موسى، لو أَنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وعامرهنَّ غيري، والأرضين السَّبْعَ في كَفَّةٍ، و"لا إله إلا الله" في كَفَّةٍ، مالت بهنَّ "لا إله إلا الله")، ((لو أَنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ): والسَّمَاوَاتِ: جمع سماء، والسَّمَاءُ: الشيء الذي ارتفع، "سما الشيء": إذا علا وارتفع؛ وُصِفَتْ بذلك لأنها فوق الناس وفوق الأرض.

((لو أَنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ)): وهذا فيه دليل على أَنَّ السَّمَاوَاتِ أطباقُ سَبْعٍ: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ}، فالسَّمَاوَاتُ سَبْعٌ بنص الكتاب، والأرضون سَبْعٌ بنص الكتاب: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ}.

ولذلك قال النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كما في الحديث الصحيح: ((مَنْ ظَلَمَ قِيْدَ شِرٍّ مِنَ الْأَرْضِ، طَوَّقَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ))، فالسَّمَاوَاتِ سَبْعٌ، والأرضون سَبْعٌ: {وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ}، هذا هو العلم، هذا علم الله -جَلَّ جَلَالُهُ- الذي خلق: {ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا} -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

فهذه السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ، ((وعامرهنَّ)): العَمَار: ضدُّ الخَرَاب، "بيتٌ عامرٌ": أي ضدُّ البيت الخَرِب، والشيء إذا كان عامراً يكون بإقامة الناس فيه، وبوجودهم فيه، ولذلك يُوصَفُ العمرُ مدَّة حياة الإنسان يقال لها: العُمُر؛ لأنها الفترة التي يُعَمَّرُ بها بدنُ الإنسان بالروح، فإذا سُلِبَتِ الرُّوحُ خَرِبَ البدنُ، توفى ومات، فقيل: عمره، فهو المدَّة التي تكون فيها الرُّوحُ في الجسد، تُوصَفُ بكونها عامراً. وقد تطلق العُمرة بمعنى الزيارة، ومنها: عُمرَةُ البيت، ووُصِفَ الزَّائِرُ بكونه عامراً؛ لأنه يَعْمُرُ الوَدَّ والحبَّ حينما يزور من يحبُّه، فإنه يَعْمُرُ الصِّلَةَ والمحبة التي بينه وبينه.

((لو أَنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وعامرهنَّ غيري)): فاللَّهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- دلَّ بهذا الحديث على أنه فوق سمواته -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ-، مستوٍ على عرشه كما نصَّ على ذلك سبحانه: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ}، فاللَّهُ فوق السَّمَاوَاتِ، مستوٍ على عرشه -جَلَّ جَلَالُهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ-.

((وعامرهنَّ غيري، والأرضين السَّبْعَ في كَفَّةٍ))، ((والأرضين السَّبْعَ في كَفَّةٍ)): السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ، وجميعٌ من فيها من الملائكة، والأرضين السَّبْعُ وجميعٌ من فيها من الجنِّ والإنس والدَّوَابِّ وما خلق الله

-عَزَّ وَجَلَّ- وذراً فيهما، كلُّ هذا الذي تراه وتشاهده وما لا تراه وما لا تشاهده في كَفَّةٍ، ((و"لا إله إلا الله" في كَفَّةٍ)): دل على أنَّ الميزانَ له كَفَّتَانِ.

ولو وُضِعَت السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ والأَرْضِينَ السَّبْعُ ومن فيهنَّ في كَفَّةٍ، و(لا إله إلا الله) في كَفَّةٍ، لمالت بهنَّ (لا إله إلا الله)، الله أكبر! ولذلك يقولون: (كَلِمَةُ قَامَتْ عَلَيْهَا السَّمَاوَاتُ والأَرْضُ) قيام الحسِّ والمعنى، فلا يمكن أن تقومَ السَّمَاوَاتُ إلا بهذه الكلمة: {إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ أَنْ تَزُولَا}، أقامها الذي أقامها سبحانه، خالق كلِّ شيءٍ، وهو على كلِّ شيءٍ وكيلٌ، فاطر السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ سبحانه، لا إله إلا هو.

فهذا الحديث يدلُّ على أنَّ هذه الكلمة عظيمةٌ عند الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، ولا يثقلُ معها شيءٌ، وحديثُ البطاقة يدلُّ على هذا، رجلٌ أكرمَ وضيعَ حقوقَ الله، وعاش حياته حتى نُشِرَ عليه يومَ القيامةِ حينما تُعْرَضُ الخلائقُ على ربِّها، وتُنشَرُ الدَّوَابُّ، تلك السَّاعَةُ التي تطيشُ فيها العقولُ: {وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا}، تسعة وتسعين سجلاً، كلُّ سجلٍ منها مدُّ البصر، سجلاتُ ربِّ العالمين التي يخطُّها المؤمنون، كرامٌ حافظون، لا يغشون، ولا يكذبون، ولا يُغَيِّرُونَ، ولا يُزَوِّرُونَ، ولا يخفي عليهم شيءٌ بأمر العبد بأمر الله -جَلَّ جَلَالُهُ-: {إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ}، فيجد العبدُ ما هو بمثقال الذرَّةِ مكتوباً في صحيفة عمله: إن خيراً فخيرٌ، وإن شراً فشرٌ، تطيشُ العقولُ من هول ما يرى من هذه الصُّحُفِ، فطوبى لمن نظر في صحيفة عمله، وطوبى لمن نُشِرَتْ له صحيفة عمله وديوانُ عمله بالخيرات والباقيات الصَّالحات، اللهم اجعلنا منهم.

نُشِرَ عليه تسعٌ وتسعون سجلاً، كلُّ سجلٍ منها مدُّ البصر، فقال: ((عبدِي، هل تنكرُ من هذا شيئاً؟ قال: لا يا ربِّ، هل ظلمتَكَ ملائكتي؟)) الله أكبر! ما أعظمَ الله -جَلَّ جَلَالُهُ-! والله إننا ما قدرنا الله حقَّ قدره، تُنشَرُ عليه تسعٌ وتسعون سجلاً يقرؤها قراءةً تامةً كاملةً لا يخرمُ منها ذرَّةً، ((هل تنكرُ من هذا شيئاً؟)): مَنْ الذي يُعْطِيهِ هذه القدرة؟ من الذي يُعْلِمُهُ؟

يا أخي، تأمَّلْ في النصوص إذا جاءتك النصوصُ من ربِّنا، وخاصة ما يتعلَّقُ بالآخرة في كتاب الله وسنة نبيِّه -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، لا تجعله يمرُّ هكذا، تأمَّلْ؛ لأنَّ هذا كلُّه يومَ القيامةِ حجةٌ لك أو حجةٌ عليك، ((هل تنكرُ من هذا شيئاً؟ قال: لا يا ربِّ، هل ظلمتَكَ ملائكتي؟ قال: لا يا ربِّ، قال: هل عندك من شيءٍ تُقدِّمُهُ غيرَ هذه؟ قال: ما عندي شيءٌ))، انتهى العمرُ، وانقضت المعاذيرُ،

((ما عندي شيء، قال: بلى، إنك لن تُظلمَ من عملك اليوم شيئاً، فجيء بطاقة، فقال: يا رب، أتهزأ بي وأنت رب العالمين؟))، بطاقة يريد أن يضعها من الحسنات على أن توضع في كفة الحسنات؛ لأن هذا يوم القيامة الوزن: {الْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ}، يوم القيامة هناك ميزانان: يُوزن الناس، وتُوزن الأعمال، يُوزن الناس كما قال تعالى: {فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا}، وقال -صلى الله عليه وسلم- : ((أتعجبون من دقة ساقيه؟ لهما في الميزان أثقل عند الله من أحد))، فهذا وزن العامل. وهناك وزن للعمل، ((فسبحان الله والحمد لله تملأ الميزان))، فالعمل يُوزن. فجاءوا بهذه البطاقة من عمله، ((قال: يا رب، أتهزأ بي وأنت رب العالمين؟))، ما هذه البطاقة أمام هذه السجلات؟! ((قال: إنك لن تُظلمَ من عملك اليوم شيئاً))، ما تُظلم من عملك اليوم شيئاً: {وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}، يوم العدل، يوم الدين، يوم الجزاء، يتولى حكومته إله الأولين والآخرين. ((قال: لن تُظلمَ من عملك اليوم شيئاً))، مع أنه مسيء، خطاء حياته كلها في الذنوب، ((فجاء بالبطاقة، فوضعت، فطاشت بالضحف، قال -صلى الله عليه وسلم-: ولا يثقل مع اسم الله شيء))، هذا يدل على عظم شأن كلمة التوحيد، مثل هذا الحديث، فهو شاهد لمن هذا الحديث ويقويه، وما كان في حديث هذا من كلام في دراج، لكن هذا حديث البطاقة يشهد له، ومعناه صحيح، فقال: ((لمالت بمن "لا إله إلا الله")؛ لأنه لا يثقل مع اسم الله شيء، وقال: ((من قالها مخلصاً من قلبه))، كل من كان من أهل هذه الكلمة قائماً بحقوقها وحقوقها، كان الفضل له على أتم الوجوه وأكملها، جعلنا الله وإياكم من ذلك الرجل.

وللترمذي وحسنه، عن أنس - رضي الله تعالى عنه -، قال: سمعتُ رسولَ الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يقول: ((قالَ اللهُ تعالى: يا ابنَ آدمَ، لو أتيتني بقرابِ الأرضِ خطايا، ثم لقيتني لا تشركُ بي شيئاً، لأتيتُكَ بقرابِها مغفرةً)).

الشرح:

هذا الحديث يدلُّ على أنه ينبغي للعبد أن يُسلمَ ويسلمَ مما يناقضُ التوحيدَ، وهو الشِّركُ بالله - عزَّ وجلَّ -، إذا قام بكلمة التوحيد بحَقِّها وحقوقها، وأقامها بشروطها، عليه أن يسلمَ، وأن يحذرَ، وأن يتعدَّ من كلِّ ما يضادُّ ذلك وينافيه، وهو الشِّركُ الذي هو أساسُ البلاء والشَّقَاءِ في الدُّنيا والآخرة، فلا بدَّ أن يحفظَ معتقده وقوله وعمله من الشِّركِ.

قال الإمامُ المجدِّدُ - رحمه الله -: ((وللترمذي وحسنه))، الترمذي: هو الإمامُ أبو عيسى، محمد بنُ سورة الترمذي، الإمامُ الحافظُ الذي جمع السُّننَ عن رسولِ الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، وكتابه (السُّننُ) المعروفُ من أعظمِ كتبِ السُّنَّةِ، جمع ما بين فقه الرواية والدِّراية، وهذا الإمامُ العظيمُ كان الإمامُ البخاريُّ يقولُ له: (ما استفدتُهُ منك أكثرُ مما استفدتُهُ مني)، وهذا يدلُّ على جلالَةِ قدره، وعلو مقامه - رحمه الله بِرَحْمَتِهِ الواسِعَةِ وَجَزَاهُ عَنَّا وَعَنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - خَيْرَ ما جَزَى عَالِمًا عَنْ عِلْمِهِ -، وعاءٌ من أوعية السُّنَّةِ.

((وللترمذي وحسنه)): أنه يحكمُ على طرق الأحاديث، والحسنُ: مرتبته من قسيم الصحيح مما ثبت عن رسولِ الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، ونزل عن درجة الصحيح؛ لأنَّ رجاله في التوثيق دون رجال الصحيح:

والحسنُ المعروف طُرُقًا وغَدَتِ رجالُه لا كالصَّحيحِ اشتهرت

والحسن: نزل لقضية الحفظ والضبط:

وهو في الحُجَّةِ كالصَّحيحِ ودونه إن صيرَ للترجيحِ

لأنَّ هذا قصُرتِ رجالُه في الحفظِ دونَ منكرٍ ينالُه

فيُحتجُّ طبعًا بالحديث الحسن، كما يُحتجُّ بالحديث الصحيح، ولكن إذا عارض الحسنُ الصحيحُ قُدِّمَ الصَّحيحُ على الحسن؛ لأنَّ فائدةَ تقسيم الحديث - كما ذكر العلماء الأئمة -: إلى صحيح وحسن، وإلى صحيح لذاته وصحيح لغيره، وحسن لذاته وحسن لغيره، معرفةُ المقَدَّمِ منها عند التعارض.

فالمقصود: أنَّ الحسن هو الصحيح يُحتجُّ به، فحسنه الإمام الترمذي معناه: أنه حديث ثابت.
 ((عن أنسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قال)): خادمُ رسولِ الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.
 ((سمعتُ رسولَ الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يقولُ: قالَ اللهُ تعالى)): الصحابي إذا قال: (سمعتُ)
 يدلُّ على اتصال الرواية؛ لأنه تارةً يكونُ قد رأى النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وسمع منه مباشرةً، وتارةً
 يروي عن غيره.

وإذا روى عن غيره: قد يصرِّح بالغير، وقد يسقط ذلك الغير، ويذكر الحديث فيقول: (قال رسولُ الله
 -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-)، فالصحابةُ كُلُّهم عدولٌ، ولذلك مثلاً عائشة -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- حينما تذكر
 ما كان من شأن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في أوائل البعثة، كحديث التحنُّث في غار حراء، هذا
 ترويه بواسطة، لكنها أسقطت الوساطة، وقالت: ((كانَ رسولُ الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يتحنُّثُ
 الليالي ذواتِ العددِ بِحِراءَ))، هذا لا يضُرُّ إسقاط من روى عنه.

وربما أنه يسقطه، لكن إذا سُئل عنه بيِّنٌ، فابن عباس -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- لما روى حديث: ((لا ربا
 إلا في النسبِ))، قال له أبو سعيد: ((أشيتاً سمعته من رسولِ الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-؟ قال:
 لا، ولكن حدثني أسامة عن رسولِ الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-))، فبيِّن أنها بواسطة، وليس متصلَّةً.
 هنا، قال: ((سمعتُ))، إذا قال: (سمعتُ) انتهى الإشكال، قد نفى وجود الوساطة، وهذا لا يضُرُّ طبعاً
 أحاديثُ الصحابةِ الأصلُ فيها المباشرة، وأنهم سمعوا النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ورأوه، وما حدَّثوا به
 عن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فهو كما قالوا.

((سمعتُ رسولَ الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يقولُ: قالَ اللهُ تعالى))، ((يقولُ: قالَ اللهُ تعالى)): هذا
 حديثٌ قدسيٌّ، والحديثُ القدسيُّ مقولٌ لله -عَزَّ وَجَلَّ-، ويختلفُ عن القرآن، أنَّ القرآنَ كلامُ الله
 -عَزَّ وَجَلَّ-، لكن هناك فوارقٌ يُفرَّقُ فيها ما بين الحديث القدسي وما بين القرآن.

فالطَّرْفُ الأعلى من الإعجازِ مما به القرآن ذو امتيازٍ

فالقرآنُ معجزٌ بلفظه، بخلاف الحديث.

سبحانَكَ اللهم وبحمدِكَ، أشهدُ أن لا إلهَ أنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ.